العرب
الجمعة 2019/08/02
السنة 42 العدد 11426

ألا توجد فلسفة عربية أو أفريقية أو آسيوية!

الفلسفة مجال للاستعمار والتقييم التعسفي من الغرب للآخر المختلف

لم تخفت النظرة الاستعمارية التي يرى بها الغرب الآخر، مثلا الأفريقي والآسيوي. نظرة نجدها مكرسة في الفكر والفلسفة بشكل كبير. حيث يلغي الغربيون كل نتاج أو تأثير فلسفي عن الشعوب الأخرى. ويقدّم لنا الفيلسوف على أنه كوني، فيما هو غربي بالأساس. ألا توجد فلسفة ورؤى أخرى للعالم عدا ما أنتجه الأوروبي والغربيون عموما؟

أزراج عمر
كاتب جزائري

سأعالج هنا مسألة تتعلق بالنقد الموجه، في السنوات الأخيرة، إلى الفلسفة الغربية من طرف عدد من المفكرين والدارسين الآسيويين والأفارقة جرّاء عنصريتها أو مشاركتها في تسويغ ظاهرة الاستعمار أو مساندتها ودعم منتجيها خلال نصوصهم لمختلف أشكال احتلال واضطهاد شعوب العالم الثالث.

ويلاحظ أن هذا النقد قد نشط بشكل متزايد بعد تثبيت أقدام الدراسات الثقافية المقارنة والدراسات ما بعد الكولونيالية في كثير من الجامعات الأوروبية/ الغربية.

تحرير الفلسفة

في هذا الخصوص قد صدرت كتب كثيرة في الغرب أنجزها مفكرون ونقاد ومؤرخو أفكار بعضهم من أصول غربية، ويعود هذا إلى فهم هؤلاء أن الفكر هو نتاج تاريخي ومثاقفة إنسانية، أما النقاد والدارسون المنحدرون من أصول أفريقية وآسيوية فقد تصدوا بالنقد لعلاقة بعض الفلاسفة الغربيين ونصوصهم بالاستعمار. وقد حدث هذا عندهم بعد استقرارهم في البلدان الأوروبية/ الغربية ومعاينتهم للبيئات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي أثرت عميقا على تشكيل المواقف الفلسفية المرتبطة بالكولونيالية وتأثيراتها السلبية في الماضي وفي الحاضر معا.

> من الصعب تعميم تفكير هذا الفيلسوف أو ذاك على مجتمعات مختلفة لها قسماتها الحضارية والتاريخية التي تميزها

ومن هذه الدراسات كتاب جماعي صدر مؤخرا في لندن/ بريطانيا ويحمل عنوان "نزع الاستعمار عن الجامعة الأوروبية/ الغربية كمفرد بصيغة الجمع"، وهو من تحرير كل من غورميندر بهامبرا، وداليا غابريال وكارن نسانسيوغلو.

ويركز فصل "نزع الاستعمار عن الفلسفة" الوارد في هذا الكتاب على الآليات التي بموجبها يمكن أن يتحقق هذه الهدف، وفي هذا الخصوص تم التأكيد أن "نزع الاستعمار على الفلسفة في آسيا وعبرها يتطلب فهم دلالة تاريخ الفكر الآسيوي في الحاضر". وأن نزع الاستعمار عن "الفلسفة والنظرية في آسيا وعبرها بواسطة اقتفاء أثر المساهمات الدالة لمفكري شرق آسيا وذلك عن طريق الإيحاء بالتحديات التي يجب أن تدرس في مجال نزع الاستعمار عن الفلسفة"، أو بالأحرى عن جغرافيا العقل.

من المعروف أن ظاهرة التفلسف التجريدي قد بقيت حكرا على النخب القليلة على مدى زمان طويل، وفي الوقت نفسه فقد استبعد الدارسون الفلسفة من دراسة تأثير مواقعها التاريخية على تشكيل مضامينها ورؤاها، وهكذا اعتبروها في الغالب نوعا من التفكير العابرة لخصوصيات المجتمعات.

وعلى هذا الأساس بالذات تمَ التعامل مع الفلاسفة المهيمنين، الذين عرفهم العالم أجمع، كمواطنين عالمين بغض النظر عن مواقع ميلادهم وانتماءاتهم العرقية أو الإثنية. ولاشك أن تميَز الفيلسوف بخاصية إبداع المفاهيم الكلية مثل الصيرورة، والماهية، والكينونة، والمقولات التي لا يمكن أن يفكر أو يعقل البشر العالم والموضوعات دونها هو الذي جعل ويجعل معظم دارسي ومؤرخي الفلسفة يميلون إلى تحييدها وتجنّب موقعتها ضمن إطار هذه الهوية الثقافية أو تلك الهوية الحضارية الأخرى.

ولكن الدراسات الحديثة قد أبرزت أن للفلسفة مواقعها التاريخية التي لعبت دورا حاسما في بناء تصوراتها والأفكار التي تكرّسها، كما أوضح هذا النمط من الدراسات أنه بقدر ما يعبّر هذا الفيلسوف الفرد عن العوالم الميتافيزيقية أو التجارب والرؤى الكونية إلخ.. فإنه يعبر دون أدنى شك عن وجهة نظر محددة ومؤطرة تاريخيا لمجتمع معين ولحياة معينة، ونتيجة لذلك فإنه يصعب تعميم تفكير أو موقف هذا الفيلسوف أو ذاك على مجتمعات مختلفة لها قسماتها الحضارية والتاريخية التي تميزها. وبناء على هذا فإن تحرير الفلسفة من تحيزاتها ومضامينها العنصرية والكولونيالية هي مهمة أساسية ينبغي أن يضطلع بها النقد المعرفي المعاصر.

في هذا السياق ينبغي أن نصنف نقد الدارس ومؤرخ الأفكار مارتن برنال للمركزية الفلسفية الغربية في كتابه المهم "أثينا السوداء" بجزئيه حيث قدّم مسحا دقيقا مدعما بالشواهد لتأثر الثقافة اليونانية، بما في ذلك عنصرها الفلسفي وعنصرها الأسطوري، بروافد فكرية وأسطورية آتية من الجذرين الثقافيين: الآسيوي والأفريقي، علما أن هذا الجانب الحيوي قد ظل مغيَبا عن جهل حينا وعمدا حينا آخر في التعليم المقدم في المعاهد والجامعات الغربية وفي مراكز البحث الفلسفي.

في كتابه "التراث المسروق" قام الدارس ومؤرخ الفلسفة الأميركي جورج جيمس بنقد الدراسات الفلسفية الغربية التي تأثرت بالموقف الاستعماري، وأدى هذا التأثر بأصحابها إلى طمس تضمين كبار فلاسفة اليونان للأفكار الفلسفية النابعة من الحضارة المصرية، ولتفنيد هذا الطمس قام هذا الدارس الأميركي بإجراء مقارنات بين نصوص فلاسفة اليونان والأفكار السائدة في مصر. واستنتج أن ثمة مثاقفة فلسفية بارزة ومثمرة بين فلاسفة اليونان وبين حضارة مصر، ولا شك أن نموذج المدرسة الإسكندرية التي تعود إلى القرن الأول الميلادي هو شاهد على وجود العلاقة بين الفكر اليوناني والفكر الشرقي.

إن تفكيك هذا الإنكار الذي يميّز نماذج كثيرة من الدراسات الفلسفية الغربية ينبغي أن يمتد إلى تحليل ونقد تفاقم ظاهرة ملفتة للنظر وهي التقييم التعسفي المتمركز أوروبيا وغربيا للعقل الأفريقي والعربي والآسيوي، ومن نماذج هذا التمركز ذي الخلفية الكولونيالية تصنيف لورانس للعرب في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" للعقل العربي بأنه عقل تحليلي لا يبدع فلسفيا في مقابل العقل الغربي التركيبي الذي يتميز في تقديره بأنه عقل فلسفي مبدع.

ولا شك أن هذا التوجه المعروف لدى لورانس العرب له أنصاره ومؤيدوه المعاصرون لنا في الساحة الأكاديمية الأوروبية/ الغربية حيث هناك من يصنف العقل العربي بأنه عقل يقوده الوحي في حين أن العقل الغربي يقوده النقد الصارم للوحي بواسطة ابتكار الأسئلة الكبرى حول الكون.

وهناك أيضا فهم شعبي غربي للعقل الأفريقي يعيد إنتاج الأفكار التي تتضمنها النظريات الفكرية الاستعمارية وفي صدارتها نظرية العرق لدى غوبينو، إذ ثمة عبارة تتردد في الأوساط الشعبية اليمينية الأوروبية وتستخدم كلمة الغابة ككناية للتوحش، وكلمة القرد ككناية للأفريقي، وتقول هذه العبارة "إنه يمكن أن تخرج القرد من الغابة، ولكن من المستحيل أن تخرج الغابة من رأس القرد".

تعليم منحاز

هناك أيضا التجاهل المنهجي للإنتاج الفلسفي والفكري النقدي الآسيوي والأفريقي سواء على مستوى النصوص التي تتضمنها البرامج الدراسية بالمعاهد والجامعات الأوروبية/ الغربية، ما عدا ما يدرس من نصوص غير غربية في فضاءات بسيطة تدعى بأقسام الدراسات الشرقية والأفريقية، وهي في مجملها لا تخاطب الجمهور الطلابي الواسع في المدارس والمعاهد والكليات الأساسية. وبخصوص هذه المناهج التعليمية فإن النصوص الفلسفية القديمة والحديثة والمعاصرة التي تدرس للطلاب الأوروبيين والأميركيين والأستراليين والكنديين وهلم جرا، ويعتبرها نقاد الفلسفة في الغرب صورة للعقل الفلسفي الإنساني، هي في مجملها نصوص لفلاسفة أوروبيين/ غربيين، وبسبب ذلك فإننا لا نعثر في هذه المناهج والبرامج الدراسية على النص الفلسفي المنتج خارج أسوار أوروبا/ الغرب.

ولاشك أن هذه الظاهرة ليست محصورة في الإنتاج الفلسفي فقط وإنما تمتد إلى مختلف الحقول المعرفية الأخرى مثل النقد الأدبي والمسرح والنص القصصي والروائي والشعري وهلم جرّا.

وفي مثل هذا الوضع تنتفي أسباب الحوار الثقافي بين الطلاب الأوروبيين/ الغربيين وبين الإنتاج الفكري والثقافي والفني الأفريقي أو الآسيوي على سبيل المثال. أما ما يدرس في أقسام الدراسات الأفريقية والشرقية فهو قليل جدا ولا يمس إلا نخبا مجهرية أوروبية/ غربية، ويعني ذلك أن هذه الأقسام والشعب والمراكز لا تعرّف المجتمعات الشعبية الأوروبية/ الغربية على تفاصيل وتطورات فكر الآخر الأفريقي أو الآسيوي.

أما على ما ينشر من الأنطولوجيات وكتب المختارات المكرّسة للنصوص الفلسفية العالمية والصادرة في أوروبا/ الغرب، فإن معاينتها تبين لنا أيضا أنها تخلو تماما من النصوص الفلسفية الأفريقية والشرقية بما في ذلك العربية طبعا. فالغربي يدرس، مثلا، بعناية كاملة عبقرية عقل أرسطو الذي أنتج المقولات العشر وعبقرية إيمانويل كانط ولكنّ الطلاب الأوروبيين/ الغربيين محرومون من الاحتفاء بالمقولات التي أضافها المفكر المصري عبدالرحمن بدوي في كتابه المعروف "الزمان الوجودي" ومن تأمل تفلسفه المطور للفلسفة الوجودية.

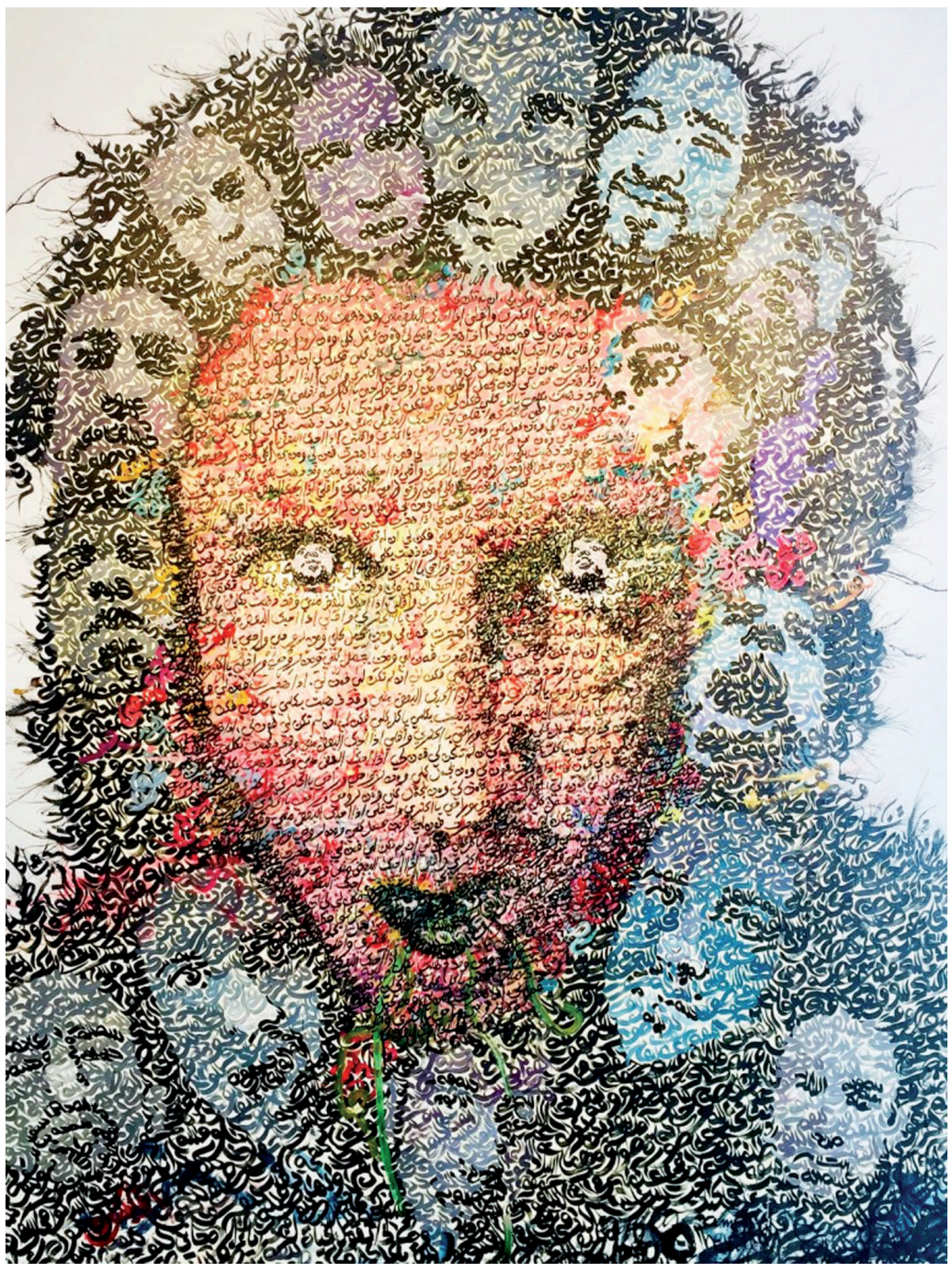

الفيلسوف ليس مواطنا عالميا (لوحة للفنان زكرياء الرحماني)

نقاد يناقشون تسع روايات سعودية متوجة بجوائز عربية

الدمام (السعودية) - انطلق مساء الاثنين ملتقى بيت السرد النقدي بجمعية الثقافة والفنون بالدمام، والذي يضم تسع قراءات نقدية لتسع روايات فائزة بجوائز بمشاركة تسعة كتّاب من مناطق السعودية.

وافتتح الملتقى رئيس بيت السرد الدكتور مبارك الخالدي بكلمة تضمنت، تاريخ بداية بيت السرد الصغيرة إلى ما وصل إليه من تطور مستمر تنوع في أنشطته الأدبية ما بين جلسات القراءة الشهرية والملتقى السنوي ومهرجان القصة القصيرة ومسابقة بيت السرد للمواهب، متمنياً أن يكون ملتقى بيت السرد الأول رافداً معرفياً وفكرياً هاما لحركة النقد ودراسات وعلوم السرد في وطننا الغالي. ثم شكر المنظمين والمشاركين والضيوف.

بعدها بدأت الجلسة الأولى، والتي أدارها الخالدي بمشاركة الدكتور حسن بن حجاب الحازمي بورقته النقدية المعنونة بـ"لعبة الشكل وتمويه المعنى "حول رواية 'ما تبقى من أوراق محمد الوطبان'"، التي قال عنها "يأتي اختياري لرواية الكاتب محمد الرطيان 'ما تبقى من أوراق محمد الوطبان'، لأسباب فنية تتعلق ببنية خطاب الروائي الذي اجتهد الكاتب في تشكيله بصورة تبدو مفارقة للمألوف، ونزاعة لإرباك المتلقي، مرسّخة للتجديد على كافة مستويات الخطاب، برؤية السردية تتكئ على أكثر من راو، بل إنها تتسع لتشمل الكاتب والناشر مع أنهما شخصان حقيقيان يفترض أنهما خارج الخطاب الروائي".

وأضاف "أما البنية الزمنية في الرواية فجاءت متشظية ومربكة تحتاج إلى قارئ يقظ يلتقط مفارقاتها ويعيد ترتيبها، وصيغ الخطأ متعثرة ومتنوعة من خطاب الكاتب الماثل في العتبات إلى خطاب السيدة تاء الذي يستهل الرواية، ويختمها".

وقدمت الدكتورة لمياء باعشن قراءة بعنوان "طوق التماسك السردي في رواية 'طوق الحمام'"، حيث عملت على تتبع امتدادات وتفرعات الخط الجامع للنص في رواية "طوق الحمام" لرجاء عالم سرديا وفكريا وتشيكليا.

هذه الرواية الملحمية تقدّم، كما لفتت الناقدة، بانوراما واسعة ومتشعبة من الشخوص والأماكن والمرجعيات التاريخية والأسطورية والثقافية. وفي هذه الورقة جهد لجمع أطرافها وذلك بتفكيك النص، والكشف عن أساسياته التكوينية للوصول إلى ذلك الطوق الذي يؤدي إلى تماسكها وانتظام بنيتها السردية والفكرية.

وفي الجلسة الثانية من الملتقى التي أدارها الشاعر عبدالوهاب الفارس، والتي شارك فيها كلٌ من الناقد حمد حميد الرشيدي والدكتور عبدالعزيز الطلحي.

وقدّم الرشيدي ورقة بعنوان "التحور الحسي البصري في رواية 'نزل الظلام' للروائي ماجد الجارد"، الفائزة بجائزة الأمير سعود بن عبدالمحسن للرواية السعودية لعام 2012، حيث أوضح أن الرواية تكمُن أهميتها في رصدها العلاقة القائمة بين الإبداع وفقدان حاسة البصر، أو بين الموهبة والألم، واعتمادها على الاستعاضة عن هذه الحاسة بالحواس الأخرى المكملة لها، كالتذوق والشم والسمع واللمس، لتتولد عنها كلها مجتمعة ما يسميه الناقد بـ"الحاسة السادسة" كما سبق له ذكره، لتكون بديلا كافياً عن حاسة البصر، أو موازية لها، وإن لم تكن معادلة لها تماما.

وقدّم الدكتور عبدالعزيز الطلحي ورقته النقدية "طرق التأتي للإقناع في رواية ترمي بشرر" للروائي عبده خال، وهي الفائزة بالبوكر العربية عام 2010، وهي رواية سرد فيها الراوي "طارق" بمعاضدة شخصيات أخرى في الرواية سيرته مع القبح من الشذوذ إلى المال إلى الشراب، رواية أطل فيها الراوي بعبارة "خسئت روحي". وبقيت روحه خاسئة طوال عتبتي السرد التي اختار الراوي أن يأتي فيهما على القبح في كل شيء، حيث انتقى لها فضاء مكانيّا عاما هو جدة، التي أطلّت على العصرنة والتحديث مع أول أمين لجدة، وفي فضاءين مكانيين خاصين لكنهما مبهمان إلا من حيث الجهة، هما الحارة (الحفرة أو جهنم) والقصر الذي حجبها عن البحر (الجنة) كما أسموه أهل الحارة.

وتواصلت النقاشات حول بقية الروايات، حيث ناقش الدكتور مبارك الخالدي رواية يوسف المحيميد "الحمام لا يطير في بريدة" الفائزة بجائزة أبوالقاسم الشابي لعام 2011. وقدّم الناقد عيد الناصر مقاربته لرواية مقبول العلوي "خرائط المدن الغاوية" الفائزة بجائزة الأمير سعود بن عبدالمحسن للرواية السعودية لعام 2016. ونوقشت كذلك ضمن فعاليات الملتقى رواية جبير المليحان "أبناء الأدهم" الفائزة بجائزة وزارة الثقافة والإعلام للرواية لعام 2017، والتي تناولها بالتحليل الناقد جمال الدين علي.

بينما قدّمت الناقدة عائشة الحكمي رواية محمد حسن علوان "موت صغير" الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية لعام 2017، وآخر الروايات التسع المختارة رواية أميمة الخميس "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"، الفائزة بجائزة نجيب محفوظ في الأدب لعام 2018، والتي ناقشها الناقد عادل الغامدي.

> ملتقى بيت السرد النقدي ناقش أهم الروايات السعودية الصادرة في السنوات الأخيرة للوقوف على ميزاتها وخصائصها

النقد يواكب المنجز الإبداعي